حقيقة الجمال عند ابن عربي

د. قدور رحماني

جامعة المسيلة

الحق محور الجمال:

إن الجمال - في فهم ابن عربي - هو عبارة عن نعوت الرحمة واللطف والعلم وغيرها، من الحضرة الإلهية...[1] وبناء على ذلك كانت أوصاف الإحسان والجود والنفع والنعمة وسواها تعبيرا عن آثار الجمال الإلهي وسحره ولمسات تجلياته... وينطلق ابن عربي– في حديثه عن الجمال– من فكرة ما يفرضه عليه مذهبه في وحدة الوجود، فكان يرى أن الجمال حقيقة واحدة مطلقة لا تتجزأ، وليس فيها تكثير إلا بالاعتبار والإضافة، ولا يخالطها شيء من القبح البتة. فإذا كان الحق هو مصدر الجمال الوحيد الذي لا يقاسمه فيه شيء آخر ولا يزاحمه فيه مزاحم، فهذا يعني أن أشياء العالم وآياته ومشاهده المبثوثة فيه تنوعًا وكثرة لا يمكن أن يكون لها وجود أو معنى أو تأثير خارج إحاطة الحق الذي منحها صفة الوجود وأفاض عليها ما أفاضه من نعم الجمال التي لا يمكن حصرها.. وإذا كان كل شيء في الوجود ظلا للحق الذي" أعطى كل شيء خلْقَه"[2]، وكانت جميع حقائق العالم ومشاهده تستلهم حركية وجودها وعناصر جمالها من مصدر تلك الحقيقة الواحدة المطلقة فهذا يعني بالضرورة أن العالم بمجموعه – ما علمنا منه وما لم نعلم – هو لوحة واحدة تنطق نغمة واحدة هي نغمة السحر الإلهي المسيطرة على كل تفاصيل الأشياء مهما كان شأنها... وهكذا فإن كل مشهد وجُودي يسكنه حسن الحق ويقيم فيه مهما كانت مرتبة ذلك المشهد علوّا وسفلا، ومن هنا فإن ما ترسخ في وعي ابن عربي يشير إلى أن عناصر الوجود كافة واقعة تحت تأثير أنشودة الجمال الإلهي الباقية، يترقرق خلالها جمال واحد لا تعدد فيه على الحقيقة.. وتأسيسا على تصور ابن عربي هذا فإن ما كان يذوقه ويسمعه خلال نداء المؤذن

هو عينه ما كان يذوقه ويسمعه خلال هسهسة الليل وتنفس الإصباح وهزيم الرعود، وباقي المشاهد الكونية وألحانها فالكل ذائب في أنشودة المجد الإلهي ونغم الوجود الخالد... وفي هذا السياق يقول ابن عربي: "كل شيء يستمد جماله من الحق... فالعالم قد حاز الحسن الإلهي وظهر به... وهو مرآة الحق... فما رأى العارفون فيه إلا صورة الحق، وهو سبحانه الجميل"[(3)]. ولما كان العالم قد أوجده الحق على صورته- كما يفهم ذلك ابن عربي- فإنه- وحاله هذه- غاية الجمال حيث لم يكن في الإمكان أن يتحقق ما هو أبدع منه وأجمل مع انتفاء قيمه القبح فيه. ومن ثمّ فإن العالم كله جميل بالأصالة لا يتطرق إليه شيء من قبح أو نقص باعتباره فائضا عن صورة الحق الكامل الجميل، وتأسيسا على ذلك فإن القبح أمر عارض لا وجود له إلا باعتبار. ومن هنا انتفى حكم القبيح المطلق من الوجود بسبب سيطرة الحسن وشموليته المطلقة، هذا الحسن الذي ملأ كلَّ شيء في العالم ولم يترك ثلمة أو فراغا. وفي هذا الامتداد يقول ابن عربي: "العالم كله في غاية الجمال ما فيه شيء من القبح"[(4)]، ويقول أيضا: "فما ثم جميل إلا هو فأحب نفسه، ثم أحب أن يرى نفسه في غيره فخلق العالم على صورة جماله"[(5)] ... ويذكر الجيلي مكررا ما أشار إليه ابن عربي فيقول: "كل ما خلق الله مليح بالأصالة لأنه صورة حسنه وجماله، فما في العالم قبح البته"[(6)]...

إذا كان الحق بمطلق جماله مهيمنا، وما ثم جمال إلا جماله فهذا يعني بالضرورة عدم وجود أي حيز للقبح إلا بالاعتبار. فقبح المعصية لا وجود له إلا باعتبار النهي، وقبح الرائحة لم يثبت إلا باعتبار من لا يلائم طبعه. أنظر مثلا إلى الزهرة الأريجة المتفتحة فهي تبدو حيزا مؤذيا ومظهرا قبيحا بالنسبة للجعل الذي لا يطيق رائحتها. ولكن هذه الزهرة نفسها تصبح أجمل مظهر وأزكى وسط بالنسبة إلى النحلة التي تقبل عليها وتمتص رحيقها. ثم أنظر بعد ذلك إلى الممارسة الجنسية، فإذا كانت خارجة عن إطارها الشرعي كانت أمرا قبيحا ومعصية موجبة لإقامة الحد، ولكنها إذا وضعت في إطارها الصحيح تتحول مظهرا من مظاهر الجمال وشكلا من أشكال العبادة. وتأسيسا على ما تقدم يتبدى

لنا أن أثر القبح لا يمكن أن يتحقق له أثر إلا في إطار الاعتبارات، لأن جوهر الأشياء هو الجمال وأما القبح فأمر عارض. وبناءً على كل ذلك يتجلى أن جميع ما دخل في الوجود من محسوس ومعقول وخيال وظاهر وباطن وشكل ومعنى هو صور من حسن الحق وتجلّ من تجليات كمالاته وجماله. وهكذا لم يكن في الإمكان أن نتصور جمالا أو نحسه ونذوقه خارج الحق الجميل الذي كثَّر صور الجمال في العالم لننصرف إليه عقلا وسمعا وبصرا وذكرا ونعبده ونحبه.

علاقة الجمال بالحب:

إن جمال العالم في تصور ابن عربي جمال ذاتي وحسنه عين نفسه، ولما كان كذلك هام فيه العارفون وانسحقوا ذائبين في مشاهده وتنويعاته المختلفة، والتصقوا به وتعلقوا بمظاهره تعلقا شديدا لأنهم لم يروا فيه إلا صورة الحق الجميل، ولم يذوقوا خلال مشاهده إلا حسنا واحدا هو حسنه الموجب للفناء. إن هذا الجمال الترابي المترقرق خلال أشياء الكون والطبيعة كان يفتح العاشق الصوفي على جمال آخر، جمال مثالي لا يتغير ولا يفنى، جمال السرّ الإلهي المكنون في كل ما يملأ الكون من سحر وإبداع وجمال وحقائق تذكره ببهاء الحق ونضارته الخالدة، وتضرم في حساسيته الوجدانية حرارة الحب ومشاعر الافتتان والهيام بالمطلق الذي لا تعرف نهاية لسحره وجماله. إن دوام انفتاح ابن عربي على جمال العالم، ذائبا في تفاعل شديد مع إيقاعات البهاء الكوني، هو في الحقيقة دوام انفتاح على جمال الألوهية المتداعي خلال مختلف المشاهد الكونية... وإذا كان يحن إلى الأماكن ويتشوق إليها ويحزن على مفارقتها فكذلك كانت الطبيعة تحن إلى عالمها العلوي وتتشوق إليه وتنوح على فراقه من خلال عويل الريح وبكاء الغيم وسجع الحمام وخرير المياه وسواها من الأصوات الطبيعية...

إن توقانه إلى ذلك وتعاطفه معه وحضوره فيه على الدوام، محاولة منه للقبض على أصداء الحقيقة المثالية المتجلية في كل تلك الصور المشهودة والمسموعة التي لم تكن سوى ظلّ يذكره بأصله وحقيقته ويحكي له عن جوهره

الذي انبثق منه. فما من شيء في تصور الشيخ قد حقق وجودا جماليا خارج دائرة جماله سبحانه وتعالى، فمنه كانت البداية وإليه يكون المآل. ولما كان الأمر كذلك صار جميع الخلق محبوبا للشيخ وأضحت جميع مجالي العالم تثير في حساسيته الوجدانية عاطفة الحب والشغف والولع والتعلق. يقول[7]:

لقد أصبحت مشغوفا ✵ به إذ كان لي كونه

فكل الخلق محبوبي ✵ فأين متيمي أينه ؟

لقد صهر ابن عربي القيم الإنسانية كلها في وعاء الحب وجعل بني البشر جميعا شركاء في وهج الحقيقة وإيقاعات الإيمان، وضم جميع الشرائع والمعتقدات في بوتقة واحدة، وانطلق يؤسس لمنظور جديد للحب والدين والوجود جاعلا من الحب دينا عالميا شاملا يسع جميع الشرائع والمعتقدات وفي ذلك يقول[8]:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة ✵ فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف ✵ وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ✵ ركائبه، فالحب ديني وإيماني.

إن ابن عربي لم يكن يرى في أي مشهد وجودي سوى سحر الحق الذي أشرق بهاؤه الخالد في كل أثر كوني واستقام به كل موجود واستولت أنغام جماله على المرئي والمخفي جميعا... ومن هنا فإن أي شيء تتعلق به النفوس وتتجذب نحو جماله وتحبه هو في الواقع إشراقة من جمال الحق وقبسة من نضارته الأزلية الأبدية. يقول ابن عربي: "فمن أحب الله لجماله، وليس جماله إلا ما يشهده من جمال العالم... ومن أحب العالم لجماله فإنما أحب الله وليس للحق مجلى إلا العالم"[9]... ولما كان الإنسان– في فهم ابن عربي– نسخة جامعة ومختصرا لطيفا تحققت فيه جميع كمالات العالم الكبير فحاز مرتبة لم تتحقق لأي مخلوق سواه، تجلى الله له في اسمه الجميل، ولم يتجل في هذا الاسم لمخلوق غيره. وها هنا يتجلى الفرق بين العاشق الصوفي وبين الإنسان المسلم في صورته السلفية التقليدية...

إن علاقة الجمال بالحب- كما يصورها ابن عربي- تتجاوز كونها علاقة بين طرفين منفصلين أي بين جميل محبوب ومحب متيم بما يسكن ذلك الجميل من سحر وجاذبية، وتتجاوز كونها علاقة عرضية زائلة ذات أبعاد وحدود محصورة ضمن أفق معلوم.. إنها علاقة شاملة محيطة دائمة لا تتوقف عند حد معين، بل إنها علاقة مستوعبة لجميع تنويعات العالم وصوره ومشاهده تحت تأثير جو عنيف من العشق والحيرة والتوتر والهيمان .. يقول ابن عربي: "فالقلوب به هائمة عاشقة، والألباب فيه حائرة يروم العارفون أن يفصلوه من العالم فلا يقدرون ويرومون أن يجعلوه عين العالم فلا يتحقق لهم ذلك، فتكل أفهامهم وتتحير عقولهم"[10].. فما أحب أحد سوى خالقه ولكن من وراء حجاب الصور والمشاهد الوجودية المختلفة... وإذا كان أهل الشعر والفن قد صرّفوا كلاما كثيرا في الحب وفي صوره المتعددة، فإنهم في الواقع لم يتعلقوا إلا به وبجماله ولم يفتتنوا إلا بما كان ينفخه من بهاء وسحر خلال أشياء الكون والطبيعة، ولم يتعلقوا إلا به وبجماله، ولكنهم كانوا محجوبين عن إدراك هذه الحقيقة، غير أن العارفين بالله لا يرجعون هذا التعلق إلا إليه ولا يربطونه إلا به ولكن من وراء سدول الصور... وإذا كان الحق يرفض أن يعبد سواه، فإنه كذلك لا يقبل أن يحب غيره مهما تكاثرت الصور المحبوبة "فهو المتجلي في كل وجه، والمنظور إليه بكل عين والمقصود في الغيب والشهود"[11]...

ولقد عبر ابن عربي عن استحالة وجود محبوب من دون الحق فقال[12]:

فما ثم محبوب سواه وإنما ✡ سليمى وليلى والزيانب للستر

فهن ستور مسدلات وقد أتى ✡ بذلك نظم العاشقين مع النثر

فإن قلت محجوب فلست بكاذب ✡ وإن قلت مشهود فذاك الذي أدري

إن الحب سببه الجمال وهو محبوب لذاته، وكل ما صدر عن الجميل فهو جميل بالطبع والأصالة. وأثر هذا الجمال في الصور ما يقع به العشق والهيمان والشوق والاغتراب. إن الهيام بجمال المحبوب ليس أمرا عارضا، وليس يحضر

حينا ويغيب أحيانا أخرى. ولكنه هيام مستمر وتعلق متواصل بحسن الذات وانفتاح واتصال وفناء...

يقول ابن عربي(13):

ولما رأيت الحب يعظم قدره ✡ ومالي به حتى الممات يدان
فأبدى لي المحبوب شمس اتصاله ✡ أضاء بها كوني وعين جَنَاني
وذاب فؤادي خيفة من جلاله ✡ فوقّع لي في الحين خط أمان
ونزهني في روض أنس جماله ✡ فغبت عن الأرواح والثقلان
وأحضرني والسر مني غائب ✡ وغيبني والأمر مني داني
فإن قلت إنّا واحد فوجوده ✡ وإن أثبتوا عيني فمزدوجان
ولكنه مزج رقيق منزه ✡ يرى واحدا والعلم يشهد ثاني
آيا من بدا في نفسه لنفيسه ✡ ولا عدد فالعين منيَ فاني
فنفسك شاهدت النفيسة منعما ✡ بنفسك وانظر في المراة تراني
فلا والذي طارت إلى حسن ذاته ✡ قلوب فأفناها عن الطيران

لقد كان ابن عربي – على الدوام– موزعا بين الواقعي والمثالي وبين الفاني والخالد، وظل منقسما على محورين متوازيين لا يلتقيان ولكنهما لا يفترقان. وقد أدى ذلك إلى توليد شعورين متناقضين في نفسه: فأما الأول فيتمثل في رغبة البقاء وأما الثاني فنلمسه من خلال رغبته في الفناء من أجل الالتحاق بالأصل وبجذوره البدائية... وعبر هذا المسلك كان الجوهر الأنثوي أعظم مجلى لجمال الحق وإشراقته البهية. هذا الجوهر في العالم الترابي كان يفتحه على جمال آخر لا يمتد إليه الفناء، وكل ذلك يمكن وصفه "بانقسام الجميل على نفسه بين الواقعي والمثالي وبين الإنساني والإلهي في إيقاع تبادلي حي"(14)..

يقول ابن عربي(15):

إذا تجليت لي أنثى أهيم بها ✡ ولو تجليت لي في أقبح الصور

ويقول كذلك (16) :

إذا ما بدا الكون الغريب لناظري ✡ حننت إلى الأوطان حن الركائب

فهو يشير إلى الرغبة في الرجوع إلى العدم لكونه أقرب إلى الحق في حال اتصافه بالعدم، منه إليه في حالة اتصافه بالوجود الذي يوجب الفناء للبقاء فيه. إنها رغبة جارفة في الالتحاق بالجوهر الذي كان ينعم به سابقا لما كان في كنف الوجود العلمي، وحين ألقي به إلى عالم الوجود العيني تمددت المسافة واتسعت الهوة بين الأصل وفرعه، ومن هنا كانت ديمومة الحنين حلقة ربط يسعي الصوفي خلالها إلى ربط الصلة بينه وبين محبوبه الحق ذي الجمال المطلق والنضارة الخالدة، كما يسعى إلى تقليص البعد الحاصل بينهما، أو قُل إن ذاك الحنين الجارف كان استعاضة عن ذلك الوصل الذي دمره البين والفراق. وكان باعثا على الكتابة الإبداعية التي تتحول بدورها إلى فضاء للاستئناس ولممارسة الحب والحرية في أجمل صورة...

وعلى الجملة فإن هذا التفاعل الحاصل بين إيقاعات البهاء الكوني وما انطوت عليه الطبيعة من عناصر الجمال كان ينمي فيه– على الدوام – الإحساس بالحب والجمال والفن لكون هذا العاشق النوعي يمتلك أكثر من غيره إحساسا عميقا بما يخبئه جمال العالم من سحر وجاذبية. ومن هنا كان هذا التعلق الخاص بمكونات الوجود يرقي في حساسيته الوجدانية شعورا فنيا يقل نظيره لدى غيره، وهو الذي يحرك فيه إرادة الاتصال والفناء[17]...

الهوامش:

1)- ابن عربي، اصطلاح الصوفية (ضمن رسائل ابن عربي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421هـ/ 2001 م، ص.409

2)- سورة طه الآية .50

3)- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج6، ضبطه ووضع فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1420هـ/ 1999م، ص.223

4)- نفسه، الصفحة ذاتها.

5)- نفسه، ج7، ص.395

6)- عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ/ 1997م، ص.94

7)- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج6، ص.224

8)- ابن عربي، ترجمان الأشواق، دار بيروت للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1401هـ/ 1981، ص43، وانظر كذلك محاضرة الأبرار للمؤلف نفسه، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ/ 2001، ص.227

9)- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج7، ص.395

10)- نفسه، ج6، ص.224

11)- نفسه، ص.223

12)- نفسه، ج4، ص.256

13)- نفسه، ج3، ص ص 382، .383

14)- عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983، ص.243

15)- ابن عربي، ديوان ابن عربي، بشرح أحمد بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1416هـ/ 1996، ص.226

16)- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج4، ص.235

17)- منصف عبد الحق، الكتابة والتجربة الصوفية، (نموذج ابن عربي)، مطبعة عكاظ، الرباط، 1980، ص415.